جواهر لال نهرو

زعيم الشعب الهندي

للاستاذ إسمعيل مظهر

ليس جواهر لال نهرو رئيساً لحكومة الهند ومواطنها الأول فحسب ، ولكنه أبرز شخصية سياسية في آسيا التي أخذت تنهض وتفيق من سباتها ، لا بل انه من رجال السياسة العالميين .

جواهر لال نهرو

وقد استقبلته المحافل السياسية في العواصم الكبرى بالترحاب والاحترام لما يمتاز به من ادراك نظري للفن الدبلوماسي ، ولاحاطته الشاملة بالمشاكل الدولية .

من هو اذاً هذا الهندي الذي يحظى بهذه الشهرة الفائقة ؟ انه رجل في الحلقة السابعة

من السر عليه مظاهر الدماثة والرقة حتى انه ليبدو كالعالم اكثر منه كالسياسي نظراً لاتزان حديثه وسعة اطلاعه وبعده عن الرياء. فليس فيه أي شيء مما يمتاز به الشرقي من غموض، اذ ان أسارير وجهه الجميل الضامر ونظرته الحزينة تكشف لنا عن أدق الانفعالات لروح الفلاسفة تتصور به في يقظة. فاذا ما عبس وجهه سرعان ما يعود لشرق اساريره بحماسة الاقتناع. وكثيراً ما ترتسم على شفتيه ابتسامة رقيقة يعبر بها عن اعتراف بخطئه، فتراه يتناقش بمناظرة وبغير مراوغة او خبث مع أقل الفلاحين شأناً وهو على استعداد ليقر بنقط ضعفه، حتى لقد بلغ به الأمر ان حرر لشركة (بدون ذكر اسمه) يحملها فيها على شخصه ملاماً بكل صراحة ان كان حقيقة اهلاً لينتقد مقاليد الهند.

وكتب ذات مرة تقال .... «إن رجلاً كجواهر لال نهرو انما هو خطر على الديمقراطية فهو يدعي الديمقراطية لا بل والاشتراكية ولكن في وسعه ان ينقلب دكتاتوراً في لحظة».

ولننظر الى نهرو نظرة صائبة، انه على الرغم من براءته وتجرده لم يكن رجل فكر فقط، تورودي عريق قضى في السجون اكثر من ١٣ سنة لتحريضه الشعوب الهندية في وجه السلطة البريطانية الغاشمة. هو أول مجاهد في ثورة سلمية ولكنها مسلحة، فلم يكد يكسب هذه المرقعة حتى اندفع في مغامرة اشد خطورة اذ آلى على نفسه ان يحول شعباً متأخراً خاضعاً منقسماً، لا بأبه الى حد ما لما يدور في عالمنا، الى شيء يلبض بالحياة ويقرب من دولة حديثة مستقلة. وهذا الكفاح المرير يستغرق من وقت نهرو ١٩ ساعة يومياً وسبعة أيام اسبوعياً، كما ان النصر معلق على جهوده الشخصية فقط.

تراه يجوب شبه جزيرة الهند في كل صوب، يعلم شعبه ويعظه متخذاً سبيل الاقناع تارةً والتهديد طوراً. فهو يلقنه الديمقراطية بأسلوب مبسط لا بل بأسلوب صبياني، فاذا استاء مثلاً من جنسدي المرور الذي لا يؤدي عمله على وجه مرضي عند تقاطع الشوارع يقفز من سيارته ويوجه بنفسه سيل السيارات والعربات اليدوية أو التي تجرها الابقار. ان شجاعته الطبيعية لا يعادلها سوى حماسة طبعه لدرجة ان اندفع مرة وسط الجماهير التي تجتمع ضده ليفسر لها اهدافه ويقنعها بالحجة الدامغة.

إن تكوين الهند السياسي يشبه الى حدٍّ ما العقل الإنساني كما وصفه سيجموند فرويد. فهناك الهند الواعية والهند غير الواعية، الأولى مكونة من المتعلمين في المدن الكبرى المتعيمين للأفكار الغربية ومن بينهم كثيرون من ذوي الذكاء البارز والعلم الواسع ويبلغون ٣ ٪ من عدد السكان. أما الباقون وقدرهم ٩٧٪ يكونون الهند غير الواعية

وهم المنسحقون والفقراء والفلاحون الأميون وأصحاب الحوانيت الصغيرة وعمال المستعمرات والمنبوذون . فهذه الهند غير الواعية شأنها شأن العقل الباطن تتطور في عالم الأحلام من الأساطير والخيالات والأعمال الخارقة والانفعالات العميقة .

ولم يترك الاحتلال البريطاني خلال قرنين أثراً يذكر في الهند ، فإن سيدها ومحركها الأعظم كان المهاتما غاندي ، هذا الرجل الضئيل الجسم لا بل هذا الناسك الذي كان على علم وفهم بأدق الدوافع التي تحرك الهند غير الواعية ، والذي انتهى به الأمر أن صنع بحمولتها تلك القنبلة التي أزاح بها التمر البريطاني .

ان نهرو زعيم الهند الاستقراطي المولد ، فهو سليل أسرة من براهمة « كشمير » وكان أبوه موتيلال نهرو من ذوي اليسار ومن أعظم المحامين في الهند المتشبعين لبريطانيا وينظر الى مواطنيه بشيء من المجاملة . ولما كان موتيلال يرغب في جعل ابنه أحد فطاحل المحامين ، أرسله في سن الثامنة عشرة الى كلية هارو في انجلترا ثم الى جامعة كمبردج .

* * *

عاد جواهر لال نهرو الى الهند سنة ١٩١٢ بعد أن كان قد مكث سبع سنوات في أوروبا . عاد وهو شاب متأنق يدخن السيجار ويتحدث بلهجة انجليزية صحيحة ويرتدي أفخر الملابس الأوروبية من صنع أحسن خياطي سافيل راو . وقد اتخذ في حياته مسلك أبناء الذوات وتزوج من فتاة من طبقته الاجتماعية ، وكانت كل الدلائل تنبيء بأنه سيستقر في حياة وادعة كحياة أبناء الذوات الريفيين .

وحوالي سنة ١٩١٦ بدت على نهرو أولى ظواهر التطور التي أكسبته حب الشعب أكثر من أي شخص آخر . فبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى قامت نهضة وطنية هندية إذ كان المهاتما غاندي يجوب البلاد والقرى داعياً الى المقاومة السلبية موجهة ضد السلطة البريطانية

ولا شك أن شاباً طموحاً يرى في السياسة الثورية مهنة أكثر نشاطاً من المحاماة ، فضلاً عن أن علاقاته بالبريطانيين ولدت في نفس جواهر لال نهرو رغبة قوية في رؤية مواطنيه يعاملون على قدم المساواة كما يعامل به باقي البشر .

ومن ثمة أخذ نهرو يتعرف على المسرح الذي تمثل عليه رواية الهند المحزنة فأخذ يتردد على المزارع ويصغي الى شكاوى الفلاحين الذين أصبحوا معدمين ، واشترك في المظاهرات السياسية ، والتقى بغاندي فاقتنع بتعاليمه ، فبدا مسلك نهرو في نظر الهند غير الواعية كأنه مستمد من تلك الأسطورة الهندية التي تروى عن بوذا وعن غيره من رؤساء الهند

الروحانيين ، سلك هذا المسلك ذلك الشاب الذي يعرض عن ملذات هذا العالم ليحيا حياة الفقر والتقشف .

ولكن واقع الأمر ما كان ليتفق وتلك الأسطورة ، إذ لم يكن في نهرو الحقيقي ما يحب للتقشف صلة . ومن جهة أخرى كانت وطنيته المتأججة وسياسته المركسية تبعدانه كل البعد عن تلك الفلسفة التقليدية لكبار مشعوذي الهند المنجردة من كل ما له علاقة بالحياة الدنيوية .

ثم ما لبث أن أدرك غاندي ما يدخره منافسه من طاقة سياسية فعين نهرو ليخلفه زعيماً على الهند .

وكان يتنازع نهرو احساسان ، فكان انجذابه بشخصية المهاتما لاحد له ، ولكنه ما كان ليخفي تشككه في أساليبه السياسية البدائية الى حد ما وفي تزهده . كان نهرو مصلحاً متشبعاً أشد الاقتناع بالاشتراكية المركسية وكان لا يأبه للدين ويتحرق رغبة في رؤية مؤسسات الهند السياسية تتطور وفقاً لمبادىء الغرب . ولا يلتقي نهرو المصلح بغاندي الحكيم الديني إلا في بعض نقط أساسية أهمها استقلال الهند . غير أن نهرو كان يحس وتشاركه الهند بأسرها أيضاً هذا الاحساس ، بأن اخلاص غاندي اخلاصاً ثابتاً لمبادىء دينية وأخلاقية لها بساطتها التقليدية العريقة ، كان يحس بأن هذا الاخلاص يمثل شيئاً أعظم بكثير من أحلام السياسيين الزائلة . ولقد تعرضت مركسية نهرو لكثير من مناقشات التحكيم انتهت به آخر الأمر الى أن يقف موقفاً معارضاً به التحرير المادي وشيوعية روسيا السوفيتية معاً .

وقامت في الهند خلال سنتي ١٩٣٠ — ١٩٤٧ حركات عصيان متتابعة موجهة ضد البريطانيين انضم اليها والد نهرو بعد أن تخلى عن مبدئه كمحافظ . ثم قام حزب التكتل الوطني الهندي ، الذي هو الآن أهم أداة فعالة في سياسة الهند ، بالحملة تلو الحملة وعقد اجتماعات هامة كانت نتيجتها أن حظر على هذا الحزب القيام بأي نشاط وزج بالعرضيين في السجون أفواجاً . ولما كان نهرو يوصي أتباعه بالامتناع عن دفع الضرائب للبريطانيين ، اضطر ليتفق مسلكه مع ما يوصي به ، إلى أن لا يدفع ضرائبه فحجز على أثاث مسكنه الأنيق في الله آباد غير مرة ، وروت ابنته انديرا كيف أن أمرتسار وآلاف الأسرات الأخرى أحرقت بسرور كل ملابسها المصنوعة في انجلترا . ومما عجل في وفاة موتيلال كثرة القبض عليه وحبسه ، ثم فقد نهرو أيضاً زوجته كمله .

وعلى أثر الانتخابات البريطانية سنة ١٩٤٧ تألفت في بريطانيا حكومة عمالية ، وإذ كان الهنود على بينة من أهداف هذه الحكومة نجحوا في ثورتهم العظيمة هذه . فرأى المحرضون أنفسهم في مراكز لم يكن لهم بعد الاستعداد النفسي لشغلها ، فقد كانوا يقبلون السجن كأنه شرفاً لهم وكانوا اعتادوا لا بل ألفوا فكرة الاستشهاد المجيد في سبيل حركتهم الوطنية . وهكذا قاموا بسرعة فائقة بتأليف حكومة الهند ! . وقد ساور الشك كثيراً من هؤلاء الثوار متسائلين هل في وسعهم أن يتحولوا بين عشية وضحاها من ثوار الى حكام إداريين ؟

والهنود بطبيعتهم قومٌ ممن يثقلهم الهم ، ولكن أحداً منهم لم يعرف في حياته همّاً أعمق وأدوم من ذلك الذي كان ينوء به جواهر لال نهرو . ويقيم نهرو في دلهي الجديدة في منزل فسيح الأرجاء كثير الزوايا حيث يحيا حياة جدية ، فهو ينام على سرير عسكري صغير ويتناول طعامه بدون أن يأبه لكيفية تقديمه ، غير أنه شديد الفخر بشيء واحد هو تفوقه الفخم المصنوعة قاعدته من اللاستيك الشفاف فتظهر آلته الداخلية ، وهو مغرم بكل مظاهر التقدم الصناعي الذي تفتقر الهند إليه بشكل حي .

* * *

ويبدأ البانديت نهرو نهاره في الساعة السابعة والنصف فيقوم ببعض الأساليب النسكية الهندية ، كأن يقف ورأسه الى أسفل وقدماه مرفوعتان . وكتب في تاريخ حياته يقول عن هذا الموضوع : « من الناحية الطبيعية هو تمرين عظيم ولكني أقدره بصفة خاصة من ناحية تأثيره النفسي عليّ . فانّ هذا الوضع المضحك الى حدّ ما قد أنمى فيّ روح الفكاهة وجعلني أكثر تسامحاً في الحوادث الشاذة التي نصادفها في حياتنا » . وفي الساعة الثامنة والنصف يتناول فطوره على مهل ثمّ يذهب الى مكتبه بوزارة الخارجية حيث يكون في انتظاره رهط من السياسيين ومندوبي الأقاليم والفلاحين وكثيرين غيرهم ممن لم يسبق تحديد موعد لهم ولكنهم يصرون على المقابلة . ثم يعود لتناول الغداء في الساعة ١٣ر٤٥ ويكون معه غالباً عدد كبير من المدعوين يعجز عن مقابلتهم في غير هذا الوقت . وليس لنهرو صديق حميم بمعنى الكلمة خلاف معاونيه وتكاد حياته الاجتماعية تنحصر في المظاهر الرسمية أو الشبه رسمية .

ويخصص نهرو ما بعد الظهر للنشاط الحزبي أو لحضور اجتماعات الجمعية . وفي الساعة ١٩ر٣٠ يعود الى منزله حيث يستقبل رجال الصحافة أو يتداول مع وزرائه ، وفي الساعة ٢١ يتناول عشاءه وبعد ذلك يقول : « حقاً إني لا أنقطع للعمل إلا في هذا الوقت » .

يدخل نهرو غرفة مكتبه ذي الأثاث المصنوع من خشب الأرو وسنه طاقم من السكرتيرين يستبدل به غيره كلما دعت الحاجة . فيطالع رسائله وقصاصات من الصحف تمكنه من سبر الرأي العام ثم يذهب ليضطجع في الساعة الثالثة والنصف أو الثالثة صباحاً وهكذا يستمر على هذا النمط من العمل المرهق ستة أيام في الأسبوع .

* * *

ولما أصبح من رجال الدولة أخذ نهرو يعرض الجماهير والنظر في موقفه تجاه مشاكل السياسة العملية . ففي مقابل تلك الوعود السخية التي نثرها في مقالاته الأولى نرى مشاريعه الحالية في الاصلاح الداخلي تسير في كثير من التروي والحذر . ويعتبره بعض الأحرار رجلاً رجعياً ، بينما يأخذ عليه الاشتراكيون تخلفه عن عهوده . ولو أراد نهرو أن يكون اشتراكياً بالعقيدة فإنه يصطدم بمعارضة قوية من حزب عام مكون من عناصر أشد اشتراكية يرأسه زعيم مشهور في الأوساط الشعبية مشبع بالروح الأمريكية هو جايا براكاش نارايان ، ويضاف الى ذلك هيئة يمينية لا يؤمن جانبها ذات صبغة هندوية وأيضاً حزب شيوعي قليل العدد (يضم ٦٠٫٠٠٠ عضو) إلا أنه حزب منظم منسك .

فيصح القول إذاً بأن في وسع نهرو أن يسير بكل سهولة دكتاتوراً كما لاحظ ذلك هو بنفسه . فإن تملق الجماهير وتعلقها به إذ تتبعه مسافات طويلة الى حيث يذهب ثم وقوفها صفوفاً لا نهاية لها عرضاً لمرور نهرو بسرعة بين سياجين من المتفرجين يحجزهم بوليس مسلح بالعصي ، كل هذا لو وجد في بلد غربي لأنبأ بالدكتاتورية . وعلى الرغم مما يبدو عليه من مظهر الرجل المتعلم المتواضع فإنه يشعر باحساس تركيز الأعمال في شخصه ، هذا الاحساس الذي يبدو جلياً في طبعه الجامح وحبه للسلطة وفي اللذة التي يظهرها عند السيطرة على أفكار الشعب .

غير أن هناك عاملين قويين يحولان بين نهرو والدكتاتورية كما هي معروفة في الغرب . أولهما شخصيته التي هي مزيج غريب من الصراحة وفلة ثقته بنفسه وإحساسه اللاشعوري بعظمته قبل شعبه ، وثانيهما هو المثالية الهندية وهي مثالية غريبة أيضاً توجه أحياناً توجيهاً سيئاً ولكنها متأصلة .

والهند لا تسير وراء نهرو لأنه يمثل سلطة الدولة ولكن لأنه يجسم في نظرها روح التجرد والتضحية التي كان يعظ بها معلمه الأعظم المهاتما غاندي .